حسن العطار شاعر من الأزهر

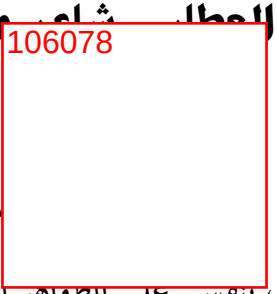

أستاذ/ عبد العزيز الدسوقي

لم يُتَح لى أن أقف بنفسي على الظواهر الأدبية والفنية في مصر عبر القرنين السابع عشر والثامن عشر، وربما النصف الأول من القرن التاسع عشر، وإنما كنت أكتفي بالأحكام التي انتهى إليها الدارسون من قبلي، وأردد أقوالهم عن شعراء هذه الفترة وأدبائها، وكانت في أغلبها أحكامًا قاسية، تتسم بطابع التعميم، فالأدب في هذه الفترة أدب متخلف منحط، والأدباء والشعراء نظامون، أسلوبهم ركيك ولغتهم رديئة، وصورهم الشعرية باردة لا ماء فيها ولا رواء، إلى آخر هذه الأحكام التي ظللت أرددها، حتى طلب إلى الصديق الشاعر صالح جودت أن أكتب عن شاعر من الأزهر، واختار لي الشاعر (حسن العطار). وبدأت أتعرف على تاريخ الرجل وخلفيته الثقافية، قبل أن أ لج عالمه الفني.

عجائب وغرائب:

وهالني أن أجد تاريخ الرجل حافلًا بالعجائب والغرائب، فهو أستاذ رفاعة الطهطاوي رائد الفكر الحديث في مصر، وهو الذي اختاره إمامًا لأول بعثه أرسلها مُحَمَّد علي إلى فرنسا، ويحدثنا رفاعة الطهطاوي إن أستاذه العطار هو الذي طلب إليه قبل رحيله إلى فرنسا أن يدون انطباعاته ومشاهداته في تلك البلاد، فسجلها في كتابه (تخليص الإبريز).

ويقول عنه: "كان للشيخ حسن العطار حظ في العلوم العصرية حتى العلوم الجغرافية، وأنه وجد بخطه هوامش جليلة على كتاب تقويم البلدان لأبي الفداء، وهوامش أخرى على أكثر كتب التاريخ وطبقات الأطباء وغيرها، وكان يطلع على الكتب المعربة، وله ولع شديد بسائر المعارف البشرية، وله بعض تآليف في الطب وغيره".

وبدأت اتشكك في الأحكام السابقة التي كونتها بصفة خاصة عن (حسن العطار)، فرجل بمثل هذه التجارب الثقافية الواسعة لا يمكن أن يكون متخلف التفكير، ولا يمكن أن يكون أدبه بهذا الوصف الظالم الذي كنت أنعته به. ويبدو أننا نرتكب أكبر الأخطاء، عندما نعزل الظواهر الأدبية والفنية عن سياقها التاريخي، ونحكم عليها أحكامًا مطلقة مجردة؛ ولهذا فقد تجردت من كل أحكامي السابقة وبدأت أعيش في عالم العطار.

حياة متعددة الجوانب:

وقبل التعرف على عالمه العلمي والفني لا بد من وقفه قصيرة لنتعرف على حياته، ويحدثنا صاحب (كنز الجوهر في تاريخ الأزهر) أنه ولد في القاهرة عام (١١٨٠هـ)، وكان والده الشيخ مُحَمَّد عطارًا فقيرًا له إلمام بالعلم، وكان يستعين بولده حسن في البيع والشراء ويستخدمه في صغار شؤونه.

ثم حفظ القرآن والتحق بالأزهر وجد في التحصيل على كبار المشايخ، كالشيخ الأمير والسيخ الصبان وغيرهما، حتى بلغ من العلوم في زمن قليل مبلغًا تميز به واستحق التصدي للتدريس، لكنه مال إلى الاستكمال فاشتغل بغرائب الفنون والتقاط فوائدها، ولما دخل الفرنسيون

إلى مصر فر إلى الصعيد كما فعل بعض العلماء، لكنه عاد بعد ذلك واتصل بهم، وتعلم من معارفهم ووقف على بعض علومهم وعلمهم اللغة العربية. ثم ارتحل في تلك المدة إلى الشام وأقام بدمشق زمنًا، واتصل بعلمائها وشعرائها. وقد تولى مشيخة الأزهر بعد وفاة الشيخ الدمهوجي (١٢٤٦هـ)، وظل شيخًا للأزهر حتى آخر عام (١٢٥٠هـ) حيث انتقل إلى رحاب الله.

ويقول عنه صاحب (كنز الجوهر) ص١٤٠: "وساح في بلاد كثيرة ولم يزل مشتغلًا بالإفادة والاستفادة، حتى عاد إلى مصر بعلوم كثيرة وأقر له علماء مصر بالانفراد. وله تآليف عديدة، منها: حاشية على جمع الجوامع في الأصول، وحاشية على الأزهرية في النحو، وحاشية على مقولات السجاعي، وحاشية على السمرقندية، ورسالة، في كيفية العمل بالاسطرلاب والربعين المقنطر والمجيب والنسائط، وله رسائل في الطب والتشريح وغير ذلك"[١٠].

ونحن نلاحظ أن حياة الرجل كانت غنية متعددة الجوانب، فهذا العطار الفقير الذي كان يستغل في دكان والده تمكن من أن يصل إلى قمة الحياة السياسية والعلمية، فكان شيخًا للأزهر، وكان مُحَمَّد علي يستشيره في الشؤون العلمية، وهو الذي رشح له (رفاعه الطهطاوي) ليكون إمامًا لأول بعثه علمية أرسلها إلى فرنسا. ثم هو إلى جانب تضلعه في علوم اللغة والدين، عالم بالطب والتشريح والصناعات الحديثة في ذلك الزمان، وله

(١٠) سليمان رصد الحنفي، كنز الجوهر في تاريخ الأزهر، ص١٤٠.

ولع شديد بالإطلاع على الكتب المترجمة، ومن خلالها ألم بالحضارة الغربية والثقافة الفرنسية، وبذلك يكون العطار من ألمع مثقفينا في ذلك الزمان. وهو بهذا وحده جدير بأن يتبوأ منزلة رفيعة بين رواد نهضتنا، ولكن العطار لم يقف عند هذا الحد بل كان له تصور جديد في الثقافة والحياة، لخصه في قوله: "إن بلادنا لا بد أن تتغير أحوالها، ويتجدد بها من المعارف ما ليس فيها". ثم يتعجب بعد ذلك كيف وصلت فرنسا إلى تلك المعارف والعلوم، ويتعجب بكثرة كتبهم وتحريرها وتقريبها لطرق الاستفادة. ولا شك أن هذا التصور كان يعتبر ثورة في تلك الأيام، فالرجل يدعو إلى تغيير الحياة والثقافة والحضارة، والاستفادة من التيارات الثقافية والعلمية التي عند الأمم الناهضة.

الروح المصرية العذبة:

فلا عجب أن يكون هذا الشيخ الجليل، وهو شيخ للأزهر وإمام للمسلمين، شاعرًا، يكتب في كل الأغراض حتى في الحب؛ ولهذا لا بد من الوقوف عند تجربته الفنية طويلًا، ودراستها على ضوء جديد في سياق عصرها بعيدًا عن التعميمات الظالمة المسرفة، وقد عشت في ديوانه المطبوع عدة أيام وتمكنت من الوقوف على بعض الخصائص التي تميزه عن غيره من شعراء ذلك الزمان.

- فشعره يتمتع بتلك الروح المصرية العذبة.
- وله ولع بوصف الطبيعة بكل مظاهرها.
- ثم هو يلجأ في بعض الأحيان إلى التصوير البياني الرشيق.
- وقد تخفف إلى حد ما من ألاعيب الصنعة.

- وقد صور شعره كثيرًا من خبراته العلمية ورحلاته المتعددة، وبطبيعة الحال لم يخل شعره من الأغراض التقليدية التي كانت سائدة في ذلك الوقت، ولم يصل معظم شعره إلى تلك الأساليب الرائعة التي وصلت إليها مدرسة البعث، والتي أعادت إلى الشعر العربي ماءه ورواءه، ولكنه لم ينحط إلى المحاكاة الباردة التي وصلت بالشعر إلى نوع سخيف من الحيل وألاعيب الصناعة، وفي رأيي أن العطار حاول –قدر طاقته الفنية– أن يجدد في موضوعات الشعر، وأن يتمرد على السابقين، فهو لا يريد أن يبكي "بسقط اللوى بين الدخول وحومل" كما بكى امرؤ القيس، ولكنه يصف رياض الشام ومنتزهاتها فيقول:

بوادي دمشق الشام جز بي أخا البسط وعرج على باب السلام ولا تخط
ولا تبك ما بكى امرؤ القيس حوملًا ولا منزلًا أودى بمنعرج السقط
فإن على باب السلام من البها ملابس حسن قد حفظن من العط
هنالك تلقى ما يروقك منظرًا ويسلي عن الإخوان والصحب والرهط
عرائس أشجار إذا الريح هزها تميل سكارى وهي تخطر في مرط
كساها الحيا أثواب خطر فدثرت بنور شعاع الشمس والزهر كالقرط

وإذا كان العطار لم يتوصل إلى تجديد حقيقي في شكل القصيدة أو مضمونها، فإنه قد أحس الحاجة الملحة إلى التجديد، ودعا إلى مخالفة الأقدمين وعدم السير على نهجهم. وليس هذا بالشيء القليل. فقد ظلت دعوات التجديد في الشعر العربي في مصر حتى وقت قريب مجرد تصورات

نظرية، ولم تتحقق بصورة فنية إلا في ثلاثينات هذا القرن.

رؤية شعرية متقدمة:

وقد كان العطار كلفًا بكتابة المطولات في شتى الأغراض ومن قصيدة له يمدح فيها صديقة (أبا القاسم المغربي) شيخ رواق المغاربة:

انهض فقد ولت جيوش الظلام ... وأقبل الصبح سفير اللثام
وغنت الورق على أيكها ... تنبه الشراب لشرب المدام
والزهر أضحى في الربا ناعسًا ... لما بكت بالظل عين الغمام
والغصن قد ماس بأزهاره ... لما غدت كالدر في الانتظام
كأنما الورقاء لما شدت ... تتلو علينا فضل هذا الإمام

ولم يقتصر شعره على هذا النمط الملون، بل كان له شعر بعيد عن الصنعة يحاول فيه أن يصك بعض الحكم. يقول في تهنئة صديق له أبعد عن نقابة الأشراف ثم عاد إليها:

الحمد لله على فضله ... قد رجع الحق إلى أهله
وصار روض الفضل ذا بهجة ... من بعد ما شقق من محله
قد يطلب الحسناء من لم يكن ... كفئًا لها؛ للحمق في عقله

ومنها:

قد يتساوى اثنان في منصب ... وإنما التفريق في سبله
ويفخر المرء بأفعاله ... لا بالذي قد مات من أهله
وقد يسود الشخص آباءه ... ويشرف الفرع على أصله

وقد نرى فرعين من دوحة تخالفًا في الحكم، مع بطله
فالخل والخمر عصير وقد باين هذا ذاك في فعله

وفي هذه القصيدة رؤية شعرية متقدمة، تنظر إلى الناس من خلال أفعالهم وسلوكهم، لا من خلال طبقاتهم وأحسابهم وأنسابهم.

وديوان العطار حافل بتصوير الطبيعة ومباهجها، وقد صور بركة الأزبكية وما حولها من قصور وأشجار ومسرات في قصيدة منها:

بالأزبكية طابت لي مسرات ولذ لي في بديع الأنس أوقات
حيث المياه بها والفلك سابحة كأنها الزهر تحويها السموات
وقد أدير بها دور مشيدة كأنها لبدور الحسن هالات
والماء حين سرى رطب النسيم به وحل فيه من الأدواح زهرات
كسابغات دروع فوقها نقط من فضة وإحمرار الورد طعنات

منارة تهتدي بها الأجيال:

ثم هو بعد ذلك كله يصور نوازع قلبه وأشواق روحه، دون أن يضع في اعتباره منصبه الديني الكبير كشيخ للأزهر، وقد نظم أكثر من قصيدة في الغزل ومنها:

أعن المحب ثناك عنه وجيبه أم قد دعاك إلى البعاد رقيبه؟
هجر الكرى لما هجرت ـــه شجونه وازداد فيه نحيبه
لم يجِن ذنبًا في هواك وإنما قد كان بالهجران منك نصيبه
أفقرته من حسن وصلك بعدما جادت عليك دموعه ونسيبه

أفـلا رثيــت لعاشــق لعبــت بــه أيــدي المنــون ونازعتــه خطوبــه

أنـت النعـيم لـه ومـن عجـب تعـذ بـــه وتمرضـــه وأنـــت طبيبـــه

والذي يطرق هذه المعاني، ويتذلل للحبيب كل هذا التذلل ويطلب وصاله ورحمته، ويشكو صده وهجره دون أن يخشى قالة السوء، أو أن يضع في حسبانه ما يجب لأمثاله من الشيوخ الأجلاء من التوقر والبعد عن الريب والظنون، لجدير أن يكون أعجوبة الأعاجيب، وخليق أن نعاود النظر في شعره من جديد، وفي ضوء ظروفه وتجاربه وظروف عصره، لا أن نكتفي بتلك الأحكام الجاهزة التي نرددها في كل المناسبات. وأعتقد أن القرنين الثامن عشر والتاسع عشر في حاجة إلى مثل هذه المعاودة المتأنية في الدراسة والحكم. ولكن – مع ذلك، وبعد ذلك – سيبقى العطار أكبر من شعره وستظل أفكاره وآراؤه في الثقافة والحضارة منارة تهتدي بها الأجيال.